(8)
مبدأ السببية
وعلاقته بأزمة التعدد الثقافي

تتنازع الثقافة العربية رؤيتين مختلفتين إزاء موقفهما من السببية، إحداهما الرؤية الأشعرية، والتي كان الإمام الغزالى خير معبر عنها، فقد نفى الغزالى العلاقة بين الأسباب والمسببات، إذ يقول «من التشنيعات أن نسلم أن النار خلقت خلقة إذ لاقاها قطنتان متماثلتان أحرقتهما، ولم تفرق بينهما إذا تماثلتا من كل وجه، ولكن مع هذا نجوز أن يلقى نبي في النار فلا يحترق إما بتغيير صفة النار أو بتغيير صفة النبي عليه السلام»[1] ولا شك إن إنكار الغزالى للسببية يؤدى إلى نفى النظام في العالم، ويؤدى إلى التواكل نتيجة لاعتقاد الناس بأن العمل وحده غير كاف للنجاح، وبالتالي تصير شئون العالم عبثاً لأن كل شيء في نظر الإنسان أصبح جائزا وممكنا دون الاعتبار لأهمية النظام القائم على الأسباب.

(1) أبو حامد الغزالى: تهافت الفلاسفة، تحقيق: سليمان دنيا، دار المعارف، القاهرة، 1980، ص246.

وبالمقابل نجد أن ابن رشد يؤكد على أهمية العلاقة الضرورية بين الأسباب والمسببات لدرجة أنه يذهب إلى أن «الحكمة ليست شيئاً أكثر من معرفة أسباب الشيء، وإذا لم تكن للشيء أسباب ضرورية تقتضي وجوده على الصفة التي هو بها ذلك النوع موجودة، فليس هاهنا معرفة يختص بها الحكيم الخالق دون غيره، كما أنه لو لم يكن هاهنا أسباب ضرورية في وجود الأمور المصنوعة لم تكن هناك صناعة أصلاً، ولا حكمة تنسب إلى الصانع دون من ليس بصانع»[1] ولا شك أن تأكيد ابن رشد على أهمية النظام السببي في العالم، يعطى للعالم بنظامه قدراً من الاستقلال عن القوى الغيبية والسحرية، فإذا كان الله قد أودع العالم نظاماً، فإن هذا النظام لا يتغير، ولا يمكن أن يكون هناك أي دور للسحر والتنجيم، والتفكير الأسطوري.

والواقع أن التصارع بين هاتين الرؤيتين في الثقافة العربية قد استمر في ثقافتنا إلى الآن، فكانت الاتجاهات العلمية العلمانية تحارب الثقافة الدينية وتتهمها باللاعقل، وأنها تترك مساحات كبيرة للسحر والتنجيم في تصور العالم، ولعل هذا ما جعل الإمام محمد عبده يؤكد على أهمية النظام السببي للعالم، ويرى أن القرآن في آياته ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: 77].

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [فاطر: 43] يؤكد على أن لله في الأكوان سنن لا تتبدل، والسنن والطرائق الثابتة التي تجرى عليها الشئون، وعلى حسبها تكون الآثار، وهى التي تسمى شرائع أو نواميس، ويعبر لنا قوم بالقوانين، فالقرآن يرى أن نظام الجمعية البشرية، وما يحدث فيها هو نظام واحد لا

(1) أبو الوليد بن رشد: الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة، تحقيق: محمود قاسم، مكتبة الأنجلو المصرية، 1964، ص145.

يتغير ولا يتبدل، وعلى من يطلب السعادة في هذا الاجتماع أن ينظر في أصول هذا النظام حتى يرد إليها أعماله،و يبنى عليها سيرته، وما يأخذ به نفسه، فإن غفل عن ذلك غافل فلا ينتظر إلا الشقاء[1] فكان محمد عبده يدرك أهمية النظام في العالم، ويحاول أن يواجه الخرافات بين المسلمين عن السحر، والتنجيم، والخرافات، وكرامات الأولياء.

وقد أعطى أمين الخولى اهتماما كبيرا بمشكلة السببية، وناقشها من خلال صراع الرؤى في الثقافة المصرية فرأى أن التعدد في الثقافة المصرية يشكل أزمة حقيقية، لأننا إزاء ثقافات تواجه بعضها البعض الآخر، وليس ثقافات تكمل بعضها البعض الآخر، فمصر - كما يراها الخولى - تعيش تعددا ثقافيا واضحا، وذلك بسبب موقعها الجغرافي استطاعت أن تتصل بالنهضة الأوربية عند أول أمرها، واتصلت بالفرنسيين طوراً، وبالإنجليز طوراً، وبغيرها من الأمم تارة، فتعددت فيها الثقافات، كما تنوعت فيها الثقافة الواحدة الأسس.

ومن ثم يرى الخولى أن مصر عرفت الثقافة الدينية بطابعها العام المشترك، وصورها المتفاوتة، ومظاهرها المتغايرة، وعرفت الثقافة المدنية بمزاجها العقلي وطموحها الفلسفي، وقد ترتب على هذا أنها تواجه مشكلة ثقافية حقيقية ناجمة عن تعدد الثقافات فيها - إذا ما أمكن الإغضاء عن التنوع الثقافي الذي لا يختلف فيه جوهر الثقافة، فليس هذا التنوع إلا اتساعاً في الأفق - فيضر الأمة تعدد الثقافات المختلفة اختلافا حقيقياً، إذ تنقسم الأمة، وتختلف الاتجاهات الفكرية اختلافا أساسياً يحرم كل فريق منهم مما عند سواه من

(1) محمد عبده الإسلام: دين العلم والمدنية، الأعمال الكاملة، جـ3، ص303.

خير، أو يعرضه لضرر إذا كانت ثقافته غير مسايرة لروح التقدم العلمي والعقلي التي بلغتها البشرية اليوم[1] ومن هنا يبدو كيف أن الخولى يرى أن التعدد الثقافي في مصر يشكل أزمة حقيقية لأننا إزاء توجهات ثقافية متنابذة، يبدد الاختلاف قواها، ويمنع اتحادها، والخولى بهذا يجسد أزمة الصراع بين دعاة الثقافة الإسلامية، ودعاة الثقافة المدنية في مصر والعالم العربي، فأصحاب الثقافة المدنية يتهمون دعاة الثقافة الإسلامية بالجمود، والتخلف، والرجعية، ومن هذا المنطلق حاول الخولى أن يجد حلاً لهذه المشكلة.

ويبدأ الخولى بحل المشكلة من خلال إيضاح مدى الاختلاف بين رأى الأديان ورأى العقليين حول إمكانية المعرفة البشرية، فيقول «أن الأديان وبخاصة الإسلام قد قالت بإمكان المعرفة وجعلت هذا الكون قابلاً للفهم ودفعت - ولا سيما الإسلام - إلى استعمال العقل، وإن حددت موقفها منه تحديداً لم تنكره، ولم تعطله، وربما تضيق دائرته في بعضها ضيقاً شديداً حرجاً، ولكنها على كل حالم لم تنكره ولم تعطله، وبهذا وما إليه قاربت الرأي الفلسفي في المعرفة»[2].

وإذا كانت الأديان تقول بإمكانية المعرفة، وهى بهذا قريبة من الاتجاه العقلي الفلسفي فكيف صارت الثقافة الدينية مقابلة هذا التقابل للثقافة العقلية الواقعية؟! يجيب الخولى بأن ذلك يرجع إلى المحافظين في الأديان كلها - يهودية، مسيحية، إسلامية - وذلك لأن الفكرة الدينية عند الدينيين

(1) أمين الخولى: رسالة تعدد الثقافات فى مصر وعلاجه، نسخة مصورة من مركز جمعة الماجد، بدون، ص4 - 5.
(2) المرجع نفسه، ص5.

جميعاً هي إنكار قابلية الكون للتعليل، و إنكار مقدرة الإنسان على هذا التعليل، وللتسبيب، إذ أنهم جميعاً ينفون الأسباب، ولا يرون شيئاً يكون سبباً لشيء آخر، ولا شيئا مسبباً عن شيء، ووجود المسببات عن الأسباب إنما هو بخلق الله لا بتأثير الأسباب، وهم بذلك يخالفون المتفلسفين مخالفة تامة، ويخالفون العلماء الملتمسين للنواميس، لأن كل محاولات الفلسفة والعلم في التعليل لا تقوم إلا على أساس اطراد وقوع الظواهر عند وقوع أسبابها، وعدم تخلف ذلك مطلقا[1] وهنا نجد أن الشيخ أمين الخولى يدين طرح التراث الأشعرى للسببية، ونفيه للعلاقة الضرورية بين الأسباب والمسببات، لأن ذلك يترتب عليه العديد من الآثار الاجتماعية السيئة، منها عدم مسئولية الإنسان عن عمله، لأن صاحب هذه الرؤية يرى الحياة حظاً مباغتاً لا ضابطاً لها، ولا أساس، فكل شيء عند أصحاب هذه الرؤية لا يقوم إلا على خوارق العادات، والمفاجأة، والشذوذ فيقول الخولى « إنه باسم العجائب والخوارق قد انتهكت حركة النواميس، وثبات النظم واطراد السنن، وباسم الروحانية المتطرفة قد أيدت مزاعما، واستلبت حقوقا، واغتصبت مزايا كواذب، وروجت حماقات، ومن الإرهاب بالأرواح الشريرة، والشياطين العابثة قد ردعت نفوسا، وهتكت حجبا، وطوردت عقول باسم السحر، وتسخير القوى الخفية قد زعزعت قلوب، وأقلقت خواطر، وهدمت أسرا وجماعات، ومن كل هذه العوامل التي راجت في البيئات الدينية، والأجواء الاعتقادية بهوى، وغرض الاستغلال،و الاحتيال، قد حوربت حرية الفكر، وسلبت سلطة العقل[2].

(1) المرجع نفسه، ص6.

(2) أمين الخولى: فى رمضان، ص19.

ويبرز أمين الخولى الوجه العقلاني المدني للإسلام في مسألة السببية فيرى أن الإسلام يتحاشى الاعتماد على الخوارق في قيادة الوجدانيات، ويتجل ذلك في مسلك القرآن بلفت النظر إلى مفهومات مشاهدة، ومرئيات يومية ينالها نظر الناس، من الإبل، والنبات، والنجوم، والكواكب المنتظمة الحركة والألوان، وتفرق الألسنة وخصائص أجناس البشر، وما ماثل ذلك ويظهر للناس هذا الكون الثابت بنظام ثابت يمكنهم من حق الانتفاع به.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: 97].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: 5][1] ومن ثم يدافع أمين الخولى عن الإسلام ضد اتهامات غير المتدينين في رميهم الأديان - ومن بينها الإسلام - بأنها تمنى أهلها بالمعجزات، وتكلهم إلى المفاجآت، وتغريهم بالمغيبات، وتطمعهم في كرامة تسخر لهم قوى الكون، فيواجهون الحياة غير مسلمين بأن لها نواميس مطردة، ولا مقتنعين بأن فيها نظماً ثابتة، فهم يتقاتلون بالتسبيح ويغزون بالترتيل، ويستنصرون بالأماني، وكذب وهم المدعين في ذلك، فالأصل القرآني هو ما سمعنا ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ [البقرة: 251][2].

ومما سبق نلاحظ نقد الخولى للثقافة الدينية - وخاصة في نمطها الأشعرى - لأنها صورت الإسلام على أنه دين يتعارض مع إقرار العلاقة الضرورية

(1) أمين الخولى: كتاب الخير، ص84 - 85.
(2) أمين الخولى: الجندية والسلم، ص168.

بين الأسباب والمسببات، في حين أن الإسلام بخلاف ذلك يؤكد على ثبات النواميس الكونية، وهذا يعطى للعالم قدراً من الاستقلال في نظامه عن فعل الحظ والسحر، والتنجيم، فالإسلام عقلاني مدني في موضوع الأسباب، ولهذا فإن الثقافات التي أخذت بالنظام السببي للعالم قد تقدمت ويرى الخولى «أن الفرق بيننا وبين من تقدم من الذين آمنوا بالثقافة العقلية المعللة المسببة، هو هذه الثقة بالأسباب، وهذا التمسك بالنتائج، وهذا الاستعداد لتحمل المسئولية، وهذا الانتفاع بالتجربة، وهذا التسخير لقوى الكون المطردة المتسقة، وما ينجم عن ذلك من إيمان عقلي وقلبي بالسنن الاجتماعية من حيث هي ظاهرة طبيعية إيماناً يدفع إلى الشعور بالوحدة الاجتماعية، وأن إهمال هذه الوحدة ينتج عنه أضراراً[1].

ولا شك أن نقد دعاة الروحانية العرجاء التي تنكر الأسباب، والتأكيد على أهمية دور الأسباب في حياة الشعوب الإسلامية، كان يركز عليه أغلب أقطاب مدرسة الإصلاح الديني، لأن ذلك هو ما تحتاجه الشعوب الإسلامية لكي تنهض، ولهذا ذهب رشيد رضا (1865 - 1935) إلى أن الدين الوحيد الذي يمكن أن يعقله العلماء المستقلون في الفهم والرأي، ويبنون عليه حكمهم هو الإسلام[2] ويذهب الشيخ عبد العزيز جاويش (1876 - 1929) إلى أن الإسلام دين العقل والنظر، لا دين ما وراء العقل، وخوارق العادات[3].

(1) أمين الخولى: تعدد الثقافات فى مصر وعلاجه، ص8.

(2) محمد رشيد رضا: الوحي المحمدي، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط2، 1988، ص38.

(3) عبد العزيز جاويش: الإسلام دين الفطرة والحرية، دار المعارف، القاهرة، 1968، ص150.

وتكمن أهمية طرح أمين الخولى لمسألة السببية في إبراز دورها الحاسم في حالة التصدع الثقافي في مصر فنحن إزاء ثقافة دينية جاهلة تنكر الأسباب من ناحية، وثقافة مدنية تؤكد على أهمية الأسباب، وهذه الثقافة المدنية العقلانية هي ما أخذ بها الإسلام، وهذا التعدد إزاء السببية أحد أسباب تخلف مصر والشرق فيقول «إن مشكلة تعدد الثقافات في مصر هي مشكلة عقيدة وفكر مخالف للحقائق التجريبية الواقعية، تترك أثراً نفسياً عميقاً ينجم عنه خلق وسلوك ليس صالحاً لمزاولة الحياة، تواجه فكرة منتزعة من الحياة تترك أثراً قوياً ينجم عنه خلق وسلوك صالح لمسايرة الحياة في عصر تقدم العلم، ومحاولة الإنسان السيطرة على قوى الكون التي سخرها الله له، وفى هذه المواجهة القوية تتأثر الفكرة الصحيحة، والخلق الصالح، بالفكرة غير الصحيحة، والخلق الملتاث، فلهذه الأولى ضررها على من تستأثر بهم من أبناء الوطن (...) وقد أزمنت هذه الحالة بفعل وراثة عنيدة مضت عليها أجيال متعاقبة، وأخرت الشرق ذلك التأخر المخيف الذي يستعصي العلاج»[1].

و إذا تساءلنا: كيف يمكن إصلاح هذا الخلل في الثقافة المصرية؟يجيب أمين الخولى أن إصلاح هذا الخلل يكون بسيادة النظام السببي للعالم، و إصلاح فكرة اللاسببية، وذلك عن طريق إصلاح نظري: بتصحيح هذه الفكرة وتقويم تلك العقيدة، و يقوم بذلك رجال الدين في تعليمهم العقائد، ووضع أساس سليم لها، و إصلاح عملي: بأن تؤدى الدولة واجبها في الإشراف على العملية التثقيفية للأمة بإشراف منفرد مباشر، يتناسب مع مسئوليتها أمام

(1) أمين الخولى: تعدد الثقافات في مصر، ص9.

ممثلي الأمـة في إعداد أبنائها إعداداً صالحاً للحيـاة، و يتحقق هذا الهدف من خلال (1) ألا تشتغل هيئة ذات صبغة دينية بالتعليم أجنبية كانت أو وطنية، لأن سـلامة هذه الهيئـات من خطأ في ثقافتها غير مضمـون، وحتى لا تؤدى هذه الهيئات ذات الصبغة الخاصة إلى تقسـيم أبناء الشعب، وتفرق وحدتهم، وتمزق شـملهم، وتفسـد الطابع القـوى الموحد الذي يرجى أن يكتسـبه كل واحـد منهم (2) توحيد خطـوات التعليم في المرحلتـين الابتدائية والثانوية لأبنـاء الأمة جميعـاً بحيث لا تتولى هيئة ما إعداد طفل، أو غلام، أو شـاب، وتكويـن عقليته، وخلفيته إلا تحت إشراف وزارة التربية والتعليم في الدولة بنظمهـا وتجاربها، ولا يكون هناك تعليم ديني مسـتقل عـن التعليم العام، بل تتحـد هاتان المرحلتان اتحادا تاماً، على أن يكـون تعليم الدين فيهما بمناهج يضعهـا المختصون في كل دين من الأديان التي تـرى الدولة تعليمها، بشرط أن تكـون هذه المناهج محققة للمعاني السـامية، والأغـراض النبيلة للتدين، بارئـة من كل مظاهر جـره التدين الجاهل، والتضليـل المغرض، والخرافات المتناقلة[1].

و إذا كان الشـيخ أمين الخولى يطالب بضرورة إصـلاح التعليم، فإنه من ناحيـة أخـرى يطالب بـضرورة إعـداد المعلم إعـداداً جيـداً، بحيث تكون العناية بخلفيته عناية تمتد إلى التدخل في فهمه للحياة، ومنطقة فيها، ونظرية إليهـا، فليس يكفى مطلقاً أن يكون كل عملنا في إعـداد المعلم هو التثقيف العـام، والخبرة بالمهنة، و ينبغى العناية بشـخصيته عناية دقيقة لأنه ينفث في روح الجيل أنفاسـه و يعديهم بذوقه، ووجدانه، كما يعديهم بهمته و إرادته،

(1) المرجع نفسه، ص11.

أو خموله وتحلله، ومن ثم فإن شخصية المعلم هي التي تخط مستقبل الأمة، وترسم غدها، وتعين خطتها من الحياة[1].

والواقع أن حديث أمين الخولى عن أهمية دور المعلم تتكشف في تجسيده الحي لهذه الأهمية، فقد كان الخولى يعنى بتكوين تلاميذه أكثر من عنايته بنشر أعماله وأبحاثه، لأن طلابه هم فكره الحي الذي يتحرك على قدمين، ولهذا اجتذب الخولى حوله العديد من التلاميذ الذين شكلوا فيما بعد رموزاً واضحة في الثقافة العربية أمثال شكري عياد، ومحمد خلف الله، ومصطفى ناصف، وحسين نصار، ... إلخ من الأسماء اللامعة، وكان حريصا على أن يبرز لهم الصورة المشرقة للإسلام، والتي تكشف عن البعد العقلاني المدني له، وكان ينصحهم بضرورة الأخذ بالأسباب، والعمل، لأن النظام السببي هو ناموس الكون، فيقول حسين نصار أنه كان يقول «آمنوا بالسببية تعيشوا عصر العلم»[2].

ولأن الأزهر هو المسئول عن تشكيل وعى الناس من ناحية الدين والتدين، ولأن وضع التعليم في الأزهر كان سيئاً في تلك الفترة التاريخية، فقد احتلت قضية إصلاح الأزهر مكانة بارزة فى فكر الشيخ أمين الخولى.

(1) المرجع نفسه، ص13.
(2) حسين نصار: أمين الخولى، ص37.